حكايتان عن شباب يؤمنون بالعراق الجديد

من بين الذين أخطأتهم الشظايا .. هناك من اكتشف الحرية، واستعاد ثقته بارادته

الموصل / نزارعبدالستار

تسعة اشهر وانا ارسل للمدى الاخبار (المليحة) ، امتصها من امعاء الحدث ، واحيانا التقطها وهي متجلطة في قلبه ، لارسلها من الموصل الكترونيا وحسب التساهيل الوبائية. بعد الشهر الثالث من عملي اخذت نسبة ما في تلك الاخبار من قتل وتدمير وانفجارات ومواجهات مسلحة تتصاعد بشكل مرعب ، والمصيبة ان هذا لايتعارض فقط مع سلام قلبي الاخضر ، وانما مع ديناميكية جسدي وطبيعة تعاملي العقلي مع المرئيات والمعطيات التي انضّجها بكثرة (التمخيخ) والتأمل. ويوما بعد يوم وجدتني اهمل الرمانة اليدوية واستخف بالعبوة الناسفة امام بلاوي الهاونات وصواريخ الكاتيوشا. في الشهر السادس من عملي وضعني انجذابي للحدث في مواجهة نفسية صعبة مع المساحة التدميرية العظمى للسيارات المفخخة. واجهت بخيبة عميقة تلك الكوارث الانسانية وانا منكسر الامل ، اعاقر مسراتي الحسية مثل البشر وارنو بحزن الى فكرة العراق الجديد.. هذه الفكرة التي ماكان لها ان تبقى حية في همة عملي اليومي وفي قناعاتي الشخصية واستعيد بها نظرتي البيضاء لو لم التق بهؤلاء الذين سأقص عليكم حكاياتهم.

انتصار الحياة : حكاية مريم

من الصعب العثور في تحركات حياتنا اليومية على ابتسامة صافية. هذا الشد توارثناه من ملامح القسوة التي عششت في غضون الوجوه المتسلطة على مجريات يومنا الشاق ، حتى بات فقر الراحة علامتنا الجسدية الفارقة ، وصار التذمر ينظم تبادلاتنا الاقتصادية والاجتماعية بشكل يثير العجب ، واخذت انعكاسات القلق تأكل من وجوهنا المرونة الجلدية التي تتمدد فيها الابتسامة النابعة من القلب.

مريم لؤي تمتلك مساحة تعبيرية عالية. صامدة الابتسامة منذ زمن طويل ، تدير مكتبة صغيرة بالقرب من الجامعة ، اردتها ان تقارن بين زمنين فقالت بانها الان افضل. سألتها :

❖كيف ؟

-الفرق كبير.. سافر زوجي الى الاردن بعد ثلاثة اشهر من زواجنا.. كان يطمح إلى حياة افضل ولكنه توفي بعد شهرين في حادث سير. حدث هذا في عام ٢٠٠٠ لم استطع تجاوز المصيبة ليس بسبب قسوتها وضعفي وانما لانني كنت قد بذلت اقصى مافي قدرتي من جهد لكي ابقى. زوجي طلال هو ايضا وصل معي الى ذلك الحد. مررنا بفترة صعبة جدا. دامت خطوبتنا مدة اربع سنوات وكان الامل يضيق بنا بشكل ملحوظ. فقد زوجي عينه اليسرى عندما كان يخدم فترة الاحتياط في الجيش وكان علي ان اقررکيف اقف إلى جانبه. فعلت هذا باقصى محبة وكان علي ان اقتنع بأن العراق لم يعد البلد الذي يمكن العيش فيه. وهذا ماحاولنا فعله ولكننا لم نوفق في الخروج منه وحدث ماحدث لطلال في اربد. ثلاث سنوات لم اتخط فيها عتبة بيت اهل زوجي. كنت غير قادرة على مواجهة العالم. الحياة انتهت بالنسبة لي. عشت تلك السنوات اسيرة حزني وبانتظار شيء اجهل ماهو.

-ومتى حدث التحول ؟

-لحظة دفعني الفضول الى الخروج من البيت للتفرج على الامريكان الذين دخلوا الموصل بعد خروج البيشمركة منها. كانت دورية صغيرة تقف عند جسر المثنى بالقرب من بيتنا. خرجنا للتفرج عليهم واقتربنا منهم بدافع الفضول. كانت الدهشة تسيطر على تلك الوجوه القرمزية حتى انهم احاطوا انفسهم باسلاك واشرطة ومنعوا الاطفال والشباب من الاقتراب منهم. عدت بعدها الى البيت وفي رأسي فكرة واحدة تبحث عن طرق سالكة للوصول.. الى ماذا.. لست ادري.. كانت رغبة الحياة حية في اعماقي. لم افكر في العودة الى عملي في دائرة الصحة. ذهبت الى اخي الكبير وطلبت منه ان يقرضني المال. لم يعارض لاسباب عديدة ولكنه صدم حين عرف انني قمت بشراء كشك صغير في المنطقة التي اسكنها ورحت ابيع المواد الغذائية والمرطبات واشياء اخرى. انقلبت الدنيا ووجدت معارضة شديدة من اهلي وكان علي مواجهة هجمة عنيفة من خصوم اقوياء. رفضت التفاوض وتمسكت بقناعاتي. لا اعلم بالضبط مصدر قوتي ولكن ما اذكره انني كنت سعيدة جدا واشعر بحريتي بشكل هائل. تحايلت عليهم بأن بحثت عن شريكات في العمل واعلنت تفرغي لشيءجديد. قررت دراسة القانون وفعلا تم قبولي في كلية الحدباء الجامعة ولكنني لم اترك نشاطاتي الاقتصادية .

مالهدف الذي كنت تسعين اليه؟

-الحرية .. الحلم القديم.. حلم طلال وحلمي بحياة كنا سنعيشها لو اننا امتلكنا الفرصة الطبيعية والحياة الطبيعية والوطن الطبيعي. انا لم اخطط لذلك كنت مندفعة وواثقة من نفسي.. علمت بالمصادفة ان المحافظة تقدم قرضا للمشاريع الصغيرة ، وهذا ماحدث. حصلت على قرض مقداره ثلاثة الاف دولار استثمرته في معمل خياطة صغير. هذه التجربة مكنتني من عمل اشياء كثيرة. معمل الخياطة قربني من نشاط مثير الى ابعد حد. انضممت الى منظمة انسانية تعنى بالمرأة والطفل. شاركت بنشاطات متعددة ولكن ذلك لم يستمر للاسف.. لابد هنا من قول شيء..ماقمت به خلال العام الماضي هو بمثابة معجزة.. اشعر الان بأنني امرأة اخرى.. واجهت مشكلة انني استثمر الفرصة المتاحة وهذا يتعارض مع رغبتي في خلق الفرصة نفسها.. وفي فترة قياسية جدا تمكنت من خلق فرصتي التي اريد..لذلك قررت ان افتح مكتبة صغيرة واتعامل مع اجمل شيء في الدنيا وهو الكتاب وطموحي ان اتمكن في القريب من استيراد الكتب وتوسيع المكتبة بشكل كبير..اطمح الى توفير المصادر الحديثة التي تمكن طلابنا من رؤية العالم بعين مفتوحة..

❖مريم.. انت ايضا تشاهدين مايحدث في البلد من قتل وتدمير واعاقة كاملة للتقدم.. هل تؤمنين بفكرة العراق الجديد؟

- انا اؤمن بالانسان العراقي الجديد..هذه حقيقة.. اؤمن ان ما نحتاج إليه الان هو القليل من الثقة.. انا اشاهد مايحدث واتأثر به كثيرا ولكنني لن اتوقف.

- مريم.. شكرا ايتها العراقية الجديدة.

حكاية اصدقاء بلا حدود

حدثني صديقي جرجيس ، منذ زمن بعيد ، عن طلاب جامعيين ، هو على صلة بهم ، قاموا بانجازات كبيرة وأسسوا رابطة باسم اصدقاء بلا حدود. لم آخذ الامر على محمل الجد الا بعد ان التقيت احد اساتذة جامعة الموصل، وتكلم بحرقة عن طلاب يحتاجون الى دعم ، وذكر لي اسم الرابطة نفسها ، وفاتحني في امر اثارة قضيتهم على صفحات الجرائد.

ذهبت الى جامعة الموصل بحثا عن اعضاء هذه الرابطة التي ذاع صيتها. لم اعثر لهم على وجود حتى ان موظفا يعمل في رئاسة الجامعة نصحني بتوفير جهدي وعندما حاولت تذكيره بانجازاتهم تنشيطا لذاكرته رد بان لاوجود لهكذا ابطال في الجامعة.

اتصلت بجرجيس هاتفيا وطلبت منه توضيح الامر فأكد لي ان الرابطة موجودة وانه انتمى اليها مؤخرا ووعدني ان يتصل بي لاحقا لتحديد موعد مع مسؤول السكرتارية في الرابطة. وفعلا اتصل بي جرجيس في اليوم التالي وحدد موعد اللقاء.

بدا عبد الرحمن احمد نوري ، مسؤول السكرتارية ، غير واثق بمسألة ايماني بقضية الرابطة وصارحني بيأسه من الضوء الاعلامي الذي قد تمنحه المدى لاصدقائه. لم ابد نفوري من هذه الحساسية رغم انني تفاجأت بها ولكن عبد الرحمن سارع الى توضيح الامر قائلا :

- نحن نريد المحافظة على استقلاليتنا.

- انا لااريد سلب هذه الاستقلالية بل على العكس سأشير اليها حتى تترسخ اكثر وتصبح واضحة للجميع.. فارجو ان تثق بي.

- حسنا.. ماذا تريد ان تعرف ؟

- من انتم.. وماذا فعلتم ؟

- نحن مجموعة من الطلاب قامت بتأسيس (رابطة اصدقاء بلا حدود) وهي رابطة علمية ثقافية مستقلة لاتنتمي الى جهة سياسية ، تهدف الرابطة الى تنمية روح الصداقة والمحبة والتعاون بين الشباب وتعمل على توعيتهم وتثقيفهم وجعلهم اكثر ادراكا ووعيا وذلك عن طريق اقامة الدورات العلمية والنشاطات الثقافية ليسجل دور الشباب حضورا بصفتهم الشريحة التي تمثل حاضر ومستقبل البلاد.

كيف أسست الرابطة ؟

أسست الرابطة بعد ان عثرنا على شيء يوحدنا.. بعد احتلال العراق مباشرة وتعرض الجامعة لعمليات النهب والسلب قمنا نحن الطلاب بتشكيل مجاميع هدفها حماية الجامعة وممتلكاتها من السرقة. فعلنا ذلك بدافع من شعورنا بضرورة القيام بفعل ما وهذا ماحدث. استطعنا ان نمنع حدوث كارثة كبرى وتمكنا من ايقاف عمليات السرقة في اقسام عدة. تسلحنا بالعصي وقاومنا الغرباء. ثم تطورت الفكرة. كيف نقوم بحماية الجامعة ولا نقوم بحماية دوائر الدولة مثلا. وهكذا توسع نشاطنا ليشمل العديد من الدوائر والمؤسسات. اصبحنا مجموعة كبيرة من الطلاب ننتقل من مكان الى اخر ونقدم المساعدة.. اوجدنا قيادة لانفسنا ووضعنا الخطط لذلك ونجحنا.. حافظنا على العديد من الممتلكات وقمنا بالتنسيق مع المساجد والجوامع في هذا. لم تكن الرابطة في ذهننا حينذاك.. اعتقدنا ان هذا هو دورنا.. بما اننا طلاب جامعة فعلينا ان نثبت وجودنا في محنة الوطن.. قمنا ايضا بالتبرع بالدم وهذا التبرع الطوعي جعلنا نخدم في مستشفيات الموصل لفترة وقمنا ايضا بحماية المستشفيات وتقديم المساعدة للمواطنين.. عملنا على نقل المرضى وتقديم العون بشتى اشكاله.

متى ظهرت فكرة الرابطة؟

بعد ان انجزنا مهمتنا.. اجتمعنا في المركز الطلابي في جامعة الموصل يوم ٩ / ٦ / ٢٠٠٣ وقررنا تأسيس رابطة اصدقاء بلا حدود هدفها العمل على ضمان حقوق الطلبة والشباب وتثقيفهم وابراز مواهبهم الابداعية وتقوية الروابط الانسانية بين الشعوب من اجل تحقيق السلام والتعاون مع المنظمات والاتحادات والاسهام في النشاطات والفعاليات التي تخدم الشباب، لكننا لم نستطع الحصول على مقر.. رفضت الجامعة منحنا المساعدة بالرغم من ان عدد المنتمين إلى رابطتنا نحو ٢٥٠ عضواً.. قمنا بتقديم طلب باصدار جريدة وحصلنا على موافقة المحافظ ولكننا لم نحصل على الدعم.. اقمنا العديد من الدورات في تعليم الكومبيوتر بالاعتماد على جهودنا الشخصية وفي منازلنا كما قمنا بفتح دورات تقوية واقمنا مهرجانات شعرية بسيطة.. لقد حاولنا بشتى الطرق ان نؤكد وجودنا.. نقوم حاليا بمساعدة الطلبة الجدد وارشادهم الى الاسلوب الصحيح في التعامل مع الحياة الجامعية وصولا الى رفع الوعي كما نقوم بمساعدة حرس الجامعة في حماية الجامعة والطلاب من الاعمال الارهابية.. ولقد استطعنا الكشف عن محاولة تفجير ملعب الجامعة في اثناء حفل تخرج حيث تطوعنا لحماية الملعب وعثرنا فيه على متفجرات لو انفجرت لاحدثت مجزرة.. نحن نريد ان نثبت ان شباب العراق بخير وانهم يسعون الى بناء العراق وانهاضه من جديد..نحن نؤمن ان لدينا القدرة على ذلك.

- بماذا تطالبون ؟

نطالب بتوفير الدعم لنا ومساعدتنا على تحقيق اهدافنا.. هناك العديد من الطلاب الذين يرغبون في ان يكون لهم الدور البارز في بناء الوطن والانسان العراقي..نحن نؤمن بالحرية ونريد المحافظة عليها.. نريد ان نتمكن من اصدار جريدتنا والاستمرار في نشاطاتنا.

بحاجة إلى مراقبة صحية

مطاعم الطرق الخارجية بين بغداد والعمارة ثكنات عسكرية لمسافرين مدنيين!

محمد الحمراني

لا بد للذاهب إلى محافظة ميسان او القادم منها إلى العاصمة ، من ان يستريح في احد المطاعم ، لكسر الملل ، الذي يسببه طول الطريق واعادة الحماسة من اجل الوصول إلى المكان الذي يبتغيه.

جبل النفايات!

في احدى رحلاتي المستمرة بين بغداد والعمارة توقف سائق السيارة (الكيا) قرب مطعم (...).. لقد مضى على خروجنا من بغداد أقل من ساعتين وفي هذا المطعم سيكون نزولنا اجبارياً.. فالسائق (يعرف!) صاحب هذا المطعم الذي يقع بين محطة لتعبئة الوقود وساحة تحتوي على جبل من النفايات! خلف المطعم، تقع بناية صغيرة دائرية، عرفت بانها مجمع للمرافق الصحية ولكن هل هي صحية فعلاً؟... هذا ما ستعرفونه بعد قليل. يتكون المجمع من (١٥) مرفقاً بلا سقوف وانت في الداخل بإمكانك ان تشاهد الغيوم وحركة الطيور في السماء، ولكن لا توجد حنفيات ماء ولا مغاسل، ومن يرد ان يحصل على ابريق ماء.. يجب ان يقف في الطابور. وفي هذا المكان تحصل الكثير من المفارقات.. يمكن ان يسألك احدهم عن اسمك وعنوان منزلك ويأخذ رقم الهاتف اذا كان لديك هاتف في هذا المكان تبدأ (السوالف) والنكات... كل هذا من اجل الحصول على ابريق ماء وتنتهي هذه المشكلة حين يستوقفك صبي متجهم الوجه يقول (جيب ميّة!)... كل ما موجود في المطعم وخارجه.. هو لشخص واحد.. هذا ما عرفته وانا اجول بين مطاعم الفلافل و(جنبر) الكرزات (وشيشة اللبن) ومحل بيع الحلويات والبيبسي، وأخيراً وجدت نفسي وسط ممر صغير ويفصل بينهما جدار قديم وضع فيه شباك صغير ومفرغة هواء.. جدران المطبخ السود والعمال يوزعون الطعام بثيابهم البيتية المتهرئة. جلست على احد الطاولات.. احدهم قال لي تفضل! قلت له: اريد نصف دجاجة.. أجاب (يوجد لدينا كباب).. قلت له إذن اجلب لي كوب شاي. ولا أعلم لماذا تذكرت حكاية السائق (أبو نور)، التي رواها لي احد الاصدقاء فقد اعتاد السائق (أبو نور) الاكل في احد المطاعم الخارجية

استغل ليصبح محلاً لبيع الشاي، ويتوسط هذا السوق الصغير باب من الالمنيوم، يؤدي إلى المطعم.. لاحظت بعض الصبية يغسلون سيارتنا من الخارج، وجذب نظري طلاء المطعم القديم، وملاكه الصغير الذي يوحي بقلة زبائنه ولكن ربما للسائق غاية في ذلك!.

حكاية (أبو نور)

يقع المطبخ قبالة مجمع المراحيض على امتداد خمس سنوات.. هي الفترة التي عمل بها سائقاً على خط العمارة- بغداد ولكن النهاية لم تكن سعيدة.. حين تفاجأ في احدى المرات بمفرزة من الشرطة تطوق المطعم وتطلب منه ان ينصرف بسرعة ولكن فضوله.. جعله يتطفل بين المسلحين ليخبروه إنهم اكتشفوا بأن الكباب، الذي يقدمه هذا المطعم من لحم الحمير. وتنتهي الحكاية حين يعود (أبو نور) إلى سيارته ويضرب كرشه بقوة ويقول: (صدك لحم مال حمار!).. شربت الشاي وخرجت وقرب الباب التقيت رجلاً كبيراً في السن.. طلبت منه ان يتحدث لي عن المطاعم الخارجية سابقاً وذكرياته عنها..

حديث ناري

كان اسم الرجل (خيون جاسم) وهو بعمر (٦٣) عاماً قال: سابقاً لم تكن توجد مطاعم على الطرق الخارجية، وكان من يرد الاستراحة لنصف ساعة او ساعة مثلاً يدخل إلى احدى المدن المحاذية للطريق العام كالعزيزية او الكوت او شيخ سعد وهناك مدن تابعة لمدينة العمارة مثل علي الغربي وعلي الشرقي وكميت. وكان السائقون يحملون الكثير من المرونة ويسعون لتقديم خدمات كبيرة للركاب. حتى انهم يتوقفون متى ما يشاء أي راكب. وأضاف: كنت اذهب مرة واحدة في العام إلى بغداد اذا كان ثمة طارئ وفي الطريق نشترط على السائق ان يأخذنا إلى مرقد السيد (علي الغربي) لغرض الزيارة والتبرك. وكانت توجد حوله الكثير من المطاعم السياحية. وبعض المسافرين كانوا يجلبون طعامهم معهم وأين ما تتوقف السيارة.. يفرشون اغطيتهم ويبدأون بأكل وجبات الطعام التي اعدت في منازلهم ويتبادلون مع من يجلسون بجوارهم الاكلات والفواكه. أما عن سبب اختفاء المطاعم من الطرق الخارجية الان فقد اوضح الحاج (خيون) ذلك بقوله: على الطرق الخارجية يوجد الكثير من قطاع الطرق والعصابات تفعل ما تشاء، وروى لي حكاية فلاح قرر ان يقيم مطعماً في منطقة (شيخ سعد) وبعد أيام من عمل المطعم طوقته عصابة في مساء احد الايام وقتلته واخذت كل ما حصل عليه من مال، ولم تعلم الشرطة بالحادث الا في اليوم التالي.. قال لي الحاج (خيون) في نهاية كلامه.. انه لم يعد يأكل في المطاعم لانه مصاب بمرض ارتفاع ضغط الدم ويكتفي في سفراته بشرب الشاي فقط.

حديث ديمقراطي

(جاسم) هو الاسم الاول لصاحب المطعم، الذي لم يرغب في ذكر اسم والده، وحين طلبت منه ان نتكلم بصراحة أجاب: (أنا احب الكلام الديمقراطي) (جاسم) انهى حياته الدراسية وهو في الصف الاول المتوسط وذهب إلى الجيش، ليمضي أكثر من (١٥) عاماً ويتجول في جبهات مختلفة ولكن ما ابقاه حياً هو انه كان طباخاً، وبعد خروجه من الجيش.. قرر الا يبتعد عن مهنته، التي تعلمها، عمل في البدء صانعاً ثم تدرج حتى اصبح صاحب مطعم. دار بيني وبينه هذا الحديث القصير، قال لي:

اشتريت هذا المطعم من احد الاشخاص، وكان قد بناه في منتصف السبعينيات.

❖ولكنه يعاني الاهمال ومن الضروري ان تقوم بترميمه.

-بين حين وآخر أجري عليه بعض الترميمات ولكن وارداته لا تشجعني علماً أني أنفق عليه مبالغ كبيرة.

بعضهم يقدم الكباب من لحم الحمير!

❖وهل هناك زبائن دائميون يترددون على مطعمك؟

-نعم بعض السائقين، الذين تربطني بهم علاقات شخصية.

❖قال احد العمال إن مطعمكم يقدم الكباب فقط!

-نعم فنحن نجلب الابقار من القرى المحيطة بنا ونذبحها وهذه العملية غير مكلفة وسهلة (قلت في نفسي من الذي يضمن انها ابقار)؟

واكملت الحوار:

❖وهل تصل اليكم مفارز الرقابة الصحية؟

-بعد سقوط صدام لن يصل الينا احد.

قلت في سري وانا اودع (جاسم) ربما وهو يقدم الطعام إلى زبائنه يتخيل انه يقدمه لمجموعة من الجنود في ثكنة!

الرجوع إلى المطعم

في هذه الاثناء خرج سائق السيارة (الكيا) من الغرفة الخاصة، التي كان يأكل فيها، وعرفت بأنه أكل مجاناً، وعند باب المطعم، اعطاه احد العمال خمس علب من السجائر ونصف كيلو من الكرزات وكيساً صغيراً يحتوي على علبة بيبسي وحلويات، ووضع احد العمال نصف قالب ثلج في (ترمس) السيارة...

أحسست بأن السائق اصبح اكثر هدوءاً، اتجهت السيارة إلى مدينة العمارة قال لي شاب اسمه (علي) كان يجلس بجواري: (هذا مطعم سوق سوداء) وبدأ يتحدث عن غلاء الاسعار التي تعادل ضعف اسعارها الطبيعية وقال آخر اسمه محسن:

(مستوى النظافة صفر بهذا المطعم) احاديث تقاطعت وبدأ الكلام يتحول إلى جدل.

إذن مطاعم العراق الخارجية الان تحتاج إلى رقابة حقيقية من قبل الاجهزة الصحية، لرصد الاخطاء ومعالجتها، لان هذه المطاعم تمثل واجهة للقادم من خارج الحدود وتسبب العديد من الامراض، ووضعها المتردي سيعكس صورة سيئة، وعلى ما اظن فان الرقابة الحازمة هي التي تتمكن من تجميل هذه الصورة قبل ان تتحول مطاعم العراق الخارجية إلى ثكنات عسكرية.